

تأثير الطب العربي على الطب العالمي

الاستاذ الدكتور محمود الجليلي

وكانت هناك ازدواجية لغوية عربية رومانية بين عامة الشعب الاندلسي . واصبحت العربية الفصحى لغة الثقافة لاسبانيين كذلك . والى جانبها اللاتينية الفصحى . وكان استعمالها ضيقاً . وبقيت اللغة العربية الاسبانية حتى القرن السادس عشر في اسبانيا . ومازالت اللغة الاسبانية المعاصرة تتضمن كثيراً من الكلمات العربية . ان لهذه الحالة اللغوية اثرأ واضحاً في انتقال المعرفة .

ولفهم انتقال الثقافة العربية الى غير العرب في اسبانيا . وعن طريقها الى اوربا لابد من معرفة تكون المجتمع الاندلسي . فهو كان يتألف من الفئات الآتية :

١. المسلمون - الفاتحون والمهاجرون الى الاندلس .
٢. المؤلّدون - الاسبان والقوط الذين اعتنقوا الاسلام باعداد كبيرة . واستعربوا بسرعة فائقة . واصبحوا يشكلون نسبة عالية من المجتمع الاندلسي .
٣. المستعربون Mozarabes وهم الذين لم يعتنقوا الاسلام . وانتشرت بينهم الثقافة واللغة العربية . وكانوا عادة في المدن الكبيرة .
٤. بقية السكان من اليهود وكانوا يسكنون (حارات اليهود) والموالي (الصقالبة) . وبعد بداية الاسترداد الاسباني Reconquista الذي استغرق اكثر من اربعمائة سنة (من سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ الى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢) واحتلالهم المدن والمواقع واحدة بعد اخرى ظهرت فئتان اخريان :
٥. المدجنون Mudjares وهم المسلمون الذين بقوا تحت حكم الاسبان في المدن التي استولوا عليها .
٦. العرب المتصرون (الموريكيون Moriscos) وهم المسلمون الذين بقوا بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ . ثم اخرجوا من البلاد سنة ١٦٠٩ . ويقدر عدد المتبقين بنصف مليون . ذهب بعضهم الى فرنسا . ولكن اكثرهم ذهب الى شمال افريقيا .

لقد كان الاتصال قوياً ومباشراً بين جميع هذه الفئات قروناً طويلة . كانت اللغة العربية فيها لغة الجميع . وكانت وعاءاً للمعرفة التي تضمنت الطب والعلوم والفلسفة والآداب . وتم بواسطتها انتقال المعرفة الى الاسبان والاوربيين . وتعرض الموريكيون للاضطهاد خاصة الاطباء منهم . وتمت محاكمة كثير منهم من قبل محاكم التحقيق (Inquisition) . واذا نظرنا الى اسماء الاطباء الذين نشرت محاكمتهم نجد انه يصعب معرفة كونها عربية . مثل :

انه لسرور عظيم . ان اتكلم امام هذا المجتمع الفاضل من العلماء والباحثين في الآثار والتراث . وان اهم غرض من محاضرتي هذه هو الاستفادة من هذه المناسبة للدعوة الى دراسة شاملة لتأثير الحضارة العربية في الحضارات القديمة والحديثة . بالاضافة الى بيان ما تيسر لنا معرفته عن ذلك في موضوع الطب . احد فروع المعرفة المهمة . وسنبداً أولاً بالقسم الذي تم التوصل فيه الى نتائج ملموسة وآراء جديدة . ان تأثير العرب في -صول اوربا على العلوم والطب والفلسفة امر متفق عليه . ولكن الرأي السائد ان ذلك تم عن طريق ترجمة عدد كبير من تلك الكتب من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية . وان الكتب التي لم تترجم لم تكن ذات تأثير . كما قيل ان الكتاب العربي الذي لم تطبع ترجمته اللاتينية لم يطلع عليه الاوربيون . وقد اقيمت هذه الحجة من قبل عدد من المؤلفين الغربيين فيما يختص باطلاع الغرب على آراء ابن النفيس الخاصة بمرور الدم في الرئتين . وكذلك فيما يختص باطلاع دانتي على الكتابات العربية عند نظمه الكوميديا الالهية . ثم ان اطلاع الغرب على الطب العربي اطلاعاً مباشراً نتيجةً اما لمعرفة اللغة العربية . وأما اختلاطهم بالاوساط العربية . امر لم يلق الاهتمام من قبل الباحثين العرب او الغربيين .

ان اهم مواضع الاتصال المباشر بين العرب والاوربيين هي : اسبانيا وصقلية وجنوب ايطاليا وجنوب فرنسا .

أ. أسبانيا :

استمر الوجود العربي في الاندلس ٧٨٠ سنة شمسية . كان العرب والافرنج اثناءها بتماس مباشر . فقد فتح العرب اسبانيا بسرعة فائقة من سنة ٧١١ الى ٧١٣ م (٩٢-٩٤ هـ) . وفتحوا جنوب فرنسا سنة ٧٢٠ . ووصلوا مائة ميل عن باريس . ولكن توقف التقدم العربي بين يوانيه وتولوز سنة ٧٣٢ م (١١٤ هـ) بعد معركة بلاط الشهداء . وتم انسحابهم من شمال البيرينيز سنة ٧٥٩ (١٤٢ هـ) . وبعد سقوط الدولة الاموية في الشام . اسس عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) الدولة الاموية في الاندلس . واستقر في قرطبة سنة ٧٥٥ . وفي عهد ابنه هشام (٧٨٨-٧٩٦) جعلت العربية لغة التدريس في جميع المعاهد . وكثر اعتناق الاسلام . وقربست المسافة بين الفاتحين وسكان البلاد . وانتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً بين الاسبان والقوط المعاشين للعرب . ولم يكن قد مضى على الفتح العربي الا بضعة عقود .

Gaspar Capdal; Martin Gaad; Jeromino Pacher; Roman Ramirez; Pinterete; Fransisco of Condoba; Jesomino Iover
وهذا الأخير اصل اسمه جابر كما جاء في اوراق التحفيق .

ان هذا يدل على ان هناك احتمالاً قوياً بوجود اطباء عرب او من اصل عربي في اسبانيا واوروبا بدلت اسمائهم . فاصبحت لاتدل على اصلهم العربي . وانهم نقلوا ونشروا الطب العربي غير المترجم . ومثال آخر على تبديل الاسماء . فان احد المؤلفين ليون الافريقي Leo Africans كان اسمه الحقيقي حسن بن علي الوزازي . وكذلك هناك احتمال وجود عدد من المولدين او المستعربين Mozananes حرفت اسمائهم او بدلت بحيث يصعب معرفة اصلها العربي .

وكان في الاندلس اطباء كثيرون اثرؤا تأثيراً كبيراً في الطب الاوربي . منهم ابو القاسم الزهراوي Albucasis (٩٣٦-١٠١٣) وفضله كبير في رفع شأن الجراحة . وترجم القسم الجراحي من كتابه التصريف الى اللغة اللاتينية مرات متعددة . واقتبس منه الجراحون الايطاليون والفرنسيون . واستمر تأثيره الى القرن الثامن عشر . وكان لكتاب ابن زهر Avenzoar (١٠٧٢-١١٦٢) التيسير Thesir تأثير كبير في اوربا وتوجد منه صيغ لاتينية متعددة . وهويتضمن علم الامراض والمعالجات (الجزئيات) ويبدو ان كتاب الكليات لابن رشد كان مكملًا له . وترجم الى اللاتينية بعنوان Colliget . وكان كتاب ابن البيطار (ت ١٢٤٨ م) الجامع لمفردات الادوية والاعذية مرجعاً مهماً في التداوي .

ب . صقليا وابطاليا

فتح العرب بلرم في صقليا سنة ٨٣١ . وتم فتح الجزيرة كلها سنة ٩٠٢ . وغزوا ايطاليا فاحتلوا بعض مدنها وحاصروا روما سنة ٨٤٦ . وانضوى صقليون كثيرون تحت لواء العرب . وحاربوا في صفوفهم . وتقلد بعضهم المناصب الكبيرة في المغرب . ثم تجزأت صقليا الى امارات يحكمها امراء متنافسون . فبدأ النورمنديون بغزوها من سنة ١٠٦١ وتمت سيطرتهم عليها سنة ١٠٩١ . أي أن فترة الفتح والحكم المستقر وفترة الغزو النورمندي استغرقت ٢٦٠ سنة .

وجذبت الثقافة العربية الاوربيين . وكانت حياة البلاط في صقليا خاصة في عهد روجر الثاني (١١٣٠ - ١١٥٤) وفردريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠) تتسم بالرفاه والابهة . واتخذ الملكان الملابس وطريقة الحياة العربية . وكان لهم مستشارون وموظفون من العرب والمسلمين . وانظم تحت لوائهم علماء من بغداد والشام . وكان فردريك الثاني قد توج امبراطوراً على الامبراطورية الرومانية المقدسة سنة ١٢٢٠ . ولكنه أثر السكن في صقليا . وكان له اهتمام خاص بالعلوم وشجع المناقشات العلمية والفلسفية . واجريت بعض التجارب في الطب وعلم الحيوان . وان روح البحث والتجربة التي تميزت بها صقلية كانت بداية عهد النهضة الايطالية . كما أنه اسس جامعة نابولي سنة ١٢٢٤ . وكان فيها عدد كبير من المخطوطات العربية . وانتشرت الثقافة العربية في جامعات اوربا بما في ذلك باريس واكسفورد .

وكانت صقليا مهابة لنقل الفكر لقديم والمعاصر . فكان فيها المتعلمون بالعربية واليونانية من سكانها . وبعض المثقفين الذين عرفوا اللاتينية . حيث انها كانت تابعة للامبراطورية البيزنطية . ان وجود اللغات الثلاث جنباً الى جنب : سهل انتقال المعرفة العربية تسهيلاً كبيراً .

وكانت مدرسة سالرنو في جنوب ايطاليا مركزاً لتدريس الطب مايقرب من

ثلاثمائة سنة (٩٠٠ - ١٢٠٠) . وكانت على صلة قوية بصقليا . وبرزت مدرستها الطبية سنة ٩٨٥ . ولكن اهم ما في تاريخها هو Constantine Africans قسطنطين الافريقي (١٠١٠ - ١٠٨٧) وهو من اصل عربي ولد بتونس وكانت تسمى آنذاك افريقيا . وازدهر سنة ١٠٦٥ - ١٠٨٥ حيث ترجم كتباً طبية كثيرة من العربية الى اللاتينية . ودرس الطب في مونت كاسينو . والفث كتب طبية في سالرنو اظهرت ان اطباءها لم يمتصوا المعلومات الحديثة العربية فقط بل تمكنوا من توسيعها . واهم مؤلفات سالرنو هو الموجز السالرنى

Compendium Salernitanum

والنظام الصحي السالرنى Regimen Sanitas Salernitanum وهو قصيدة يبدونها الفث حوالي سنة ١١٠٠ م في ٣٥٢ بيتاً في الاصل ثم اضيفت اليها اضافات اخرى . واشهر شرح لها هو شرح ارنولد فيلانوما (١٢٣٥ - ١٣١٢) Arnold de Villanova وهو طبيب واديب من فيلانوما اتقن اللغة العربية وترجم منها ألف باللاتينية . واشتهر من بين طلاب سالرنو مايكل سكوت Michael Scott (١١٧٥ - ١٢٣٦) الذي تضمنت احدي وصفاته التخدير بالاستنشاق . وكانت اللغة العربية احدي لغات التدريس في سالرنو .

لقد عاصرت هذه المدرسة كبار اطباء والمؤلفين العرب . فعاصرت الرازي (ت ٩٢٥) وابن الجزار (ت ٩٧٥) وعلي ابن العباس (ت ٩٩٤) وابن سينا (ت ١٠٣٧) والزهراوي (ت ١٠١٣) وابن رشد (ت ١١٩٨) .

ج . مونيبلية :

ان قرب مونيبلية من اسبانيا جعلها في متناول التأثير العربي الاسباني . اضافة الى انها كانت تابعة لأراغون . وكان الطب يدرس فيها منذ القرن الحادي عشر . وتتميز عن باريس وبقية المدارس الطبية بالخزين الكبير من المخطوطات العربية . بينما كان في مدرسة باريس تسعة كتب اهمها الحاوي للرازي . وكان في جامعة قرطبة ما يزيد على مائتي ألف كتاب .

ان الظروف التي احاطت بمونيبلية آنذاك سهلت تقدمها . فقد كانت تتصف بالتسامح الديني وحرية التنوع العلمي مع مجال جيد للممارسة الطبية . واصدر حاكمها سنة ١١٨١ بياناً سمح بموجه لكل شخص مؤهل بتدريس الطب في مقاطعته دون الاهتمام بموطنه الاصلي . وحدث ذلك في وقت مناسب اذ استجذبت امور في الاندلس ادت الى نزوح عدد من الاطباء وغيرهم . ذهب عدد كبير منهم الى مونيبلية . وبين سكان المدينة عدد كبير من العرب والمسيحيين المتكلمين بالعربية . وكانت في اوائل القرن الثالث عشر باتصال قوي مع المدارس العربية في جنوب اسبانيا . ولهذا فان ما قدمته هذه المدينة لتطور الطب الاوربي على الطريقة العربية هو اكثر اهمية مما يتناوله المؤلفون عادة .

ومن مدرسيها العظام ارنولد فيلانوما (١٢٣٥ - ١٣١٢) Arnoldevillanova وهنري موندفيل Henry de Mondeville (١٢٦٠ - ١٣٢٥ ؟) وكاي دي شوليا Guy de Chauliac (١٢٩٨ - ١٣٦٨) مؤلف كتاب الجراحة العظمى Chirurga Magna الذي انجزه سنة ١٢٦٣ . وقد تضمنت مؤلفاتهم اقتباساً كبيراً من الكتب العربية او تضمنت مصطلحات عربية عديدة . ومن طلابها جلبرت الانكليزي (حوالي ١٢٩٠) Gilbert Anglicus وجون من كادسدن John of gaddesden (١٢٨٠ - ١٣٦١) وجون من اردرن John of Arderne (١٣٠٧ - ١٣٩٠) الذين كان لهم منزلة

كبيرة في الطب في انكترا وپطرس الاسباني (Petrus Hispanus) حوالي سنة ١٢٧٧ وكان كتابه كثر الفقراء Thessurus pauperum. واسع الانتشار.

وقد أصبح الباباجون الحادي والعشرين أما الحروب الصليبية فقد كان تأثيرها قليلاً.

د. عصر الترجمة الواسعة :

لم تكن الترجمة من العربية الى اللاتينية التي ازدهرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. انعامل الوحيد في نقل المعرفة العربية الى اوروبا . وبالرغم من اهميتها فان انتقال الطب العربي كان مديناً الى تركيب المجتمع في مجموعات كبيرة من السكان . في اسبانيا وصقليا وجنوب فرنسا لمئات السنين . مما ادى الى النقل الشفوي والاطلاع المباشر للاطباء والمؤلفين الاوربيين لمعرفة اللغة العربية واقتباسهم من الكتب الطبية العرة .

ان هناك اختلافاً كبيراً بين الترجمة من اليونانية والترجمة من العربية . فالترجمة من العربية كانت حية . فاهلها موجودون ولغتهم سائدة ومعارفهم تتقدم وتنتشر . واذا نظرنا الى ترجمة المؤلفات بالتفصيل نجد ان قسطنطين ترجم في الفترة من ١٠٦٥ الى ١٠٨٥ كتاب كامل الصناعة الطبية لعلي بن عباس سبعين سنة بعد وفاته . وكتب ابن الجزار واسحق بعد ما يقرب من مائة سنة من وفاتهما . وترجم جرارد جراحة الزهراوي بعد ١٥٠ سنة من وفاته وقانون ابن سينا بعد ١٢٠ سنة من وفاته وترجم سكوت كتب ابن رشد بعد عشرين سنة فقط من وفاته . ويبدو أن بعض كتبه ترجمت أثناء حياته . ثم ان هذه الكتب لم تستخرج من اماكن مخبأة فيها . بل كانت حية ومتداولة ولهذا فان لهذه الترجمة حيوية خاصة .

لقد كتب كثير عن الترجمة . فتمت في برشلونة في اوائل القرن الثاني عشر . واصبحت طليطة بعد ان سقطت بيد الاسبان سنة ١٠٨٥ مركزاً مهماً للترجمة منذ سنة ١١٢٥ . واشهر مترجميها جرارد الكريمونسي (١١١٤ - ١١٨٧) Gerard Carmonensi الذي قدم من ايطاليا سنة ١١٥٠ . وقد ألف تلامذه قائمة باناتجه تضمنت ٧١ كتاباً بينها ٢١ كتاباً طبياً منها المنصوري للرازي والقانون لابن سينا ويبدو ان بعضها من انتاج تلاميذه باشرافه . وبعضها بالاشتراك مع غيره خاصة غالب Gallipus وهو من المستعربين . وقام بالترجمة في غير طليطة آخرون منهم اسبانون ومنهم غرباء قدموا اليها ثم انشاء الفونسو العاشر ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ - ١٢٨٤) عدداً من مؤسسات التعليم العالي وشجع الترجمة من العربية الى اللاتينية واحياناً القشتالية . وتوجد ترجمات لا يعرف مترجموها ولكن السؤال الذي يحتاج جواباً هو . هل كان هؤلاء المترجمون هم الذين يعرفون العربية فقط ؟ والمجتمع كما يبين كله يعرف العربية . ومعظمه يعرف الرومانية كذلك . ان طبيعة الاشياء تدل على مرور المعرفة بين السكان بصورة اعتيادية لاستوقف المؤرخ أو المسجل .

وترجمت بعض الكتب في صقليا من قبل ادلرد من باث الانكليزي حوالي ١١١٦ - ١١٤٢ Adlerd of Bath واسطيفان من بيزا (الانطاكي) سنة ١١٢٧ Stephen of Pisa ثم مايكل سكوت Michael Scott (ت ١٢٣٦) وغيرهم وظهر واضحاً انهم لم يكونوا صقليين . وتعليل ذلك كما يبدو لنا ان الصقلي سواء كان عربياً ام مستعرباً لم يكن بحاجة الى الترجمة . فهؤلاء المترجمون ترجموا لأغراض خاصة للثقافيين من سكان صقليا . كما ترجم في صقليا كتاب ابن الجزار زاد المسافر الى اللاتينية مرة اخرى وترجم الى اليونانية كذلك . فهل كان الكتاب الوحيد الذي ترجم الى اليونانية ؟

واهتم ملك نابولي جارلس الاول بترجمة الكتب الطبية العربية الى اللاتينية وأقسام مؤسسة لذلك تضم المترجمين الفعليين والنساخ والمصلحين . وترجم آنذاك الحادي للرازي وهو اوضحهم الكتب الطبية وتقويم الابدان لابن جرلة . كما ترجمت كتب اخرى في مونيابه .

ان ترجمات القرنين الحادي عشر والثاني عشر وضعت اسس التعرب Arabism في الطب في الغرب . وكان هذا الاتجاه غالباً عدة قرون ولم يتوقف الا في الاوقات الحديثة وبعد محاولات طويلة .

اما الكتب اليونانية المترجمة الى اللاتينية فقد ترجمت عن الصيغ العربية لها مع تعليقات الاطباء العرب عليها . التي تضمنت تحليلها وتصنيفها واطراف معرفة العرب بالامراض واستعمال الادوية الجديدة . وهكذا أصبحت الآراء الطبية العربية جزءاً مندمجاً في الطب الاوربي

ولابد من الاشارة الى قيام اليهود بترجمة عدد من الكتب من العربية الى العبرية . خاصة عائلة ابن طبون Ibn Tibbon التي انتقلت من غرناطة الى جنوب فرنسا سنة ١١٥٠ م ومارس الترجمة اربعة اجيال منهم . واستعان المؤلفون اليهود بهذه الترجمات عند وضع كتبهم باللغة اللاتينية . وهكذا قدموا الطب العربي والعالم العربي الى اوروبا باعتباره من انتاجهم .

هـ . نقل الطب العربي المباشر :

عند اطلاعي على الطبقات المتعددة للترجمات اللاتينية للكتب العربية بعد انتشار الطباعة في اواخر القرن الخامس عشر . تبين ان بعضها قد ترجم اكثر من مرة . او ان فصولاً من بعضها قد اعيدت ترجمته مرة اخرى في القرن السادس عشر . وادى الاطلاع على هذه الطبقات المختلفة الى دراسة هؤلاء المترجمين الجدد . فتبين انهم اطباء معروفون قاموا بالتأليف باللاتينية بالاضافة الى الترجمة المحدودة . وان تأثير هؤلاء يتجاوز كثيراً الكتاب المترجم . فانهم ادخلوا الى العالم الغربي كثيراً من المعرفة العربية عن طريق اطلاعهم المباشر عليها . وسنذكر عدداً من المشهورين في عالم الطب منهم :

١- ارنولد فيلانوف Arnold de Villanova (١٢٢٥ - ١٣١١)

ولد في اسبانيا ومارس في مدن مختلفة واصبح استاذ الطب في مونيبيه . وهو من الاطباء الاوربيين الذين كانوا يتقنون اللغة العربية وترجموا منها الى اللاتينية . والف كتباً طبية باللغة اللاتينية . ويعتبر شرحه للنظام الصحي السالرنى احسن شرح لتلك القصيدة وقد طبع ٢٤٠ طبعة منفصلة وترجم الى كل لغة اوروبية تقريباً .

٢- اندرياس فيزاليوس (١٥١٤ - ١٥٦٤) Andreas Vesalius

المعروف ان الكتاب المنصوري للرازي ترجمة جيرارد الكريمونسي الى اللغة اللاتينية . وطبعت ترجمته . ولكن احدى الطبقات (طبعة بازل سنة ١٥٤٤) لم تكن كلها من ترجمة جرارد . وانما كانت المقالة العاشرة من ترجمة البانوس تورنيوس (١٤٨٩ - ١٥٥٠) Albinus Torinus Vitoduranus الذي كتب مقدمة اخرى للكتاب وكانت المقالة التاسعة (في الامراض الحادثة من القرن الى القدم) Liber IX من ترجمة وشرح الطبيب الاوربي المشهور اندرياس فيزاليوس البروكسلي (١٥١٤ - ١٥٦٤) Andreas Vesalius Bruxellensis

اشتهر فيزاليوس في القرن السادس عشر حيث ألف كتاباً طبع سنة

١٥٤٣ تضمن لوحات تشريحية مهمة جعل عنوانه (ماكنة الجسم الانساني)

De Humani Corporis Fabrica liber septem و اثر قيامه باجراء

التشريح بنفسه . وجعل حد الفنانين يرسمه على لوحات دقيقة ونشرها . أثر لك في مسيرة الطب الاوربي اكبر تأثير . وبلغ منزلة عالية بحيث ان مؤرخي الطب الاوربيين يقسمون تاريخ الطب الاوربي الى مرحلتين : مرحلة قبل فيزاليوس . ومرحلة بعده)

وكان الكتاب التاسع من المنصوري للرازي من ترجمة فيزاليوس قد طبع بصورة منفصلة سنة ١٥٣٧ قبل ان يطبع من الكتاب الكامل سنة ١٥٤٤ بعنوان Liber Nonus Almansoris (الكتاب التاسع من المنصوري) وقال في مقدمته (لذلك لم نقيد بالترجمة حرفياً بل فضلنا الشرح مستخدمين حريتنا في التوقف لدى الامور الضرورية . كما اننا افضنا في التعليق على ما رأيناه غامضاً) . وكذلك على القائلين بان كتاب الرازي مترجم عن اليونانية واكد انه من تأليف الرازي . ذكرنا لان بعض الكتاب الغربيين اراد الانتقاص من معرفة فيزاليوس للغة العربية . مع انه ذكر كثيراً من الكلمات العربية في كتاب التشريح .

٣- اندرياس الباكوس (١٤٥٠ - ١٥٢٢) Andreas Alpagus
طبيب متعرب كبير قضى اكثر من ثلاثين سنة في سوريا . جمع كثيراً من المخطوطات العربية ثم عاد الى بادوا Padua في ايطاليا وعين استاذاً لكرسي الطب في جامعتها . ولكنه توفي بعد ذلك بقليل . ترجم عدداً من الكتب العربية الى اللاتينية مع شروح على بعضها . ونفح ترجمة جرارد الكريموني لقانون ابن سينا طبع سنة ١٥٢٧ واعيد طبعه بعد ذلك مرات متعددة بلغت ٣٦ طبعة . ورد في مقدمته على القائلين بان ابن سينا كان اسبانياً . وطبعت ترجمته لكتاب ابن البيطار في الادوية سنة ١٦٠٢ . ولكن من المؤكد انه لم تطبع كل الكتب التي ترجمها الباكوس لغرض النشر .

ان هؤلاء الاطباء وغيرهم ضمنوا في مؤلفاتهم التي كتبوها باللغة اللاتينية . المعرفة الطبية العربية غير المترجمة الى اللاتينية لمعرفتهم اللغة العربية . وبذلك ساهموا مساهمة كبيرة في تأثير الطب العربي على الطب الاوربي .

٥- الدورة الدموية الرئوية :

كان تاريخ الدورة الدموية الرئوية وما يزال مجال بحث في المجلات والكتب الطبية . وبخاصة من كان له الفضل الاول في ذلك . وكان الرأي السائد الذي كتبه جالينوس Galen أن الدم يمر من البطين الأيمن الى البطين الأيسر من القلب خلال ثقب غير مرمية في الحاجزينهما . ونقض هذا الرأي الطبيب العربي علاء الدين ابن النفيس القرشي (٦٠٧ - ٦٨٧ هـ / ١٢١٠ - ١٢٨٨ م) ورد على جالينوس وابن سينا . وشرح مرور الدم في الرئتين وتبدله فيهما . مما مهد لاكتشاف الدورة الدموية الكاملة من قبل وليم هارفي Harvey بعده بثلاثة قرون تقريباً . وكتب مؤلفون اوروبيون في القرن السادس عشر رأياً مشابهاً لرأي ابن النفيس ثم كتب كثيرون . ومازالوا . حول اقتباس مؤلف من آخر .

ونقول أن أول شيء في آراء جالينوس في اوربا ورد في كتاب فيزاليوس Vesalius (مائة الجسم الانساني) في الطبعة الاولى سنة ١٥٤٣ . وكان اكثر وضوحاً في الطبعة الثانية سنة ١٥٥٥ . وصدر كتاب في اللاهوت بعنوان (اعادة المسيحية Christianismi Restituto) سنة ١٥٥٣ ألفه طبيب من كاتولونيا هو مايكل سرفيتس (١٥١١ - ١٥٥٣) Michael Servetus : تضمن في معرض بحثه عن الروح وصفاً لمرور الدم في الرئتين مشابهاً لوصف ابن النفيس . بحيث يبدو انه اقتباس منه . وتوجد أدلة على معرفة سرفيتس للغة العربية . ثم

صدر كتاب من تأليف كولومبوس (١٥١٠ - ١٥٩٩) Realdus Columbus
وكان استاذاً في بادوا ثم روما . وعنوانه ني التشريح De Re Anatomica
نشر سنة ١٥٥٩ تضمن وصفاً لمرور الدم في الرئتين مع بعض التجارب العملية . وتضمن كتاب آخر آراء مشابهة وعنوانه (التشريح وتاريخه) نشر سنة ١٥٥٤ من تأليف فالفردي Valverde وكان في بادوا وهو من اسبانيا ولقبه de Hamusco
فهل تعني انه من حمص ؟ ولقد دلت الدراسة المفصلة للموضوع على ان سرفيتس اعتمد على نظرية ابن النفيس . وان فالفردي مطلع على آراء سرفيتس . وان كولومبو مطلع اطلاقاً مباشراً على نظرية ابن النفيس ومقولة سرفيتس .

ان وجود اندرياس الباكوس وبولص الباكوس في بادوا في القرن السادس عشر ومعرفتهما بآراء ابن النفيس ووجود كتبه لديهما يفسر ظهور الشك المفاجيء بآراء جالينوس خلال سنوات قليلة لدى المؤلفين في تلك الفترة من فيزاليوس الى هارفي . ولقد اصبحت نسخة الباكوس من كتاب شرح التشريح لابن النفيس في مكتبة اسرة ناني Nani في البندقية . ولقد اطلعت على فهرس المكتبة الذي اعده استاذ اللغات الشرقية في جامعة بادوا سيمون اسماني Simon Assemani ونشر سنة ١٧٩٢ في بادوا . فاذا هو يحتوي على وصف النسخة التي كتبت سنة ١٧٣٤ هـ (١٣٣٣ م) اي خمسة وخمسين سنة بعد وفاة المؤلف ابن النفيس . وتقع في ٣٠٦ صفحات . ان لوجود هذه النسخة في ايطاليا اهمية كبيرة في تاريخ اكتشاف الدورة الدموية .

ومن المفيد ان نذكر ان ابن النفيس ذكر الشرايين الاكليلية . وانها تغذي عضلة القلب . وهو مشابه لما ذكره هارفي خاصة اذا لاحظنا مرور النصوص بمرحلة الترجمة . ويبدو ان هارفي كان مطابقاً على ما كتبه ابن النفيس

٦- الكتب الطبية العربية والاوربية :

كانت الكتب العربية المترجمة والتعليقات عليها المسؤول الاول عن احياء المعرفة في اوربا . وعند نشأة الجامعات في اواخر القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر كانت الكتب المنهجية العربية اللاتينية هي ما يعطى للطلبة . وبقيت كذلك لمدة طويلة بعد النهضة الاوربية . وكان التدريس شفهاً لندرة الكتب آنذاك . ولكن اختراع الطباعة كان له تأثير كبير على انتشار الكتب وتطور الثقافة الطبية . وكانت الكتب الطبية والعلمية العربية المترجمة الى اللاتينية من اوائل ما اخرجته المطابع في القرن الخامس عشر . واتسعت الطباعة في القرن السادس عشر كثيراً . ولكن قبل اختراع الطباعة . كان هناك ناشرون يقومون باستنساخ الكتب بواسطة (نسخ) وربما بلغ عدد النسخ ٥٠٠ أو ١٠٠٠ نسخة

وبدأ الاوروبيون يؤلفون الكتب الطبية . فالتفت كتب في سالرنو في القرن الثاني عشر . وهي لها اهميتها رغم كونها بدائية وغير دقيقة لانها كانت بداية الطب الاوربي . وبدأت الاصاله في التأليف الاوربي بكتاب هنري موندفيل (Henri de Mondeville) (١٢٦٠ ؟ - ١٣٢٥) جاء من بولونا الى مونبليه ونقل اليها المعرفة الطبية والتشريحية وكانت من اصل عربي خاصة ابن سينا . وكان معاصراً له موندينوس دي لوزي Mondinus de' Luzzi (١٢٧٥ ؟ - ١٣٢٦ ؟) الذي اشتغل بالتشريح بنفسه بصفة نظامية . وكان كتابه عن التشريح Anatomica الذي ألفه سنة ١٣١٦ اول كتاب عصري في الموضوع . وكان قد قرأ الكتابات العربية واقتبس منها . وكان الخطوة الاولى للتحرك من المدرسية Scholasticism ومع هذا فانه كان يعتمد بصفة كلية على المؤلفين

العرب . وكان بالحقيقة يشرح ليحفظ كتبهم .
وألف كذلك مؤلفون أوروبيون متعددون كان اعتمادهم الأصلي على الكتب الطبية العربية . أما باصلها العربي او ترجمتها اللاتينية .

ومما يؤيد وجود قراء في اوربا يعرفون اللغة العربية في القرن السادس عشر .
طبع كتاب القانون لابن سينا ومعه كتاب النجاة باللغة العربية وبالحروف العربية في روما سنة ١٥٩٣ . ولولا ذلك ما صنعت الحروف العربية ولا تمت هذه الطعة .
بدل على اهميته . هو تساهل الناشرين فيما يختص بما ورد في الالهيات لابن سينا من الامور الدينية والاكتفاء بالاشارة الى ما رواه مخالفا لمذهبهم . وذلك لتيسير الكتاب (للمشتاقي لتعلم اللسان العربي) . ولا بد وان هناك كتباً علمية اخرى طبعت في هذه المطبعة . ولكن المصادر المتيسرة عن الطباعة في ذلك العهد لم تشر الا الى طبع القانون بالعربية في روما سنة ١٥٩٣ . وانه لأمر يستحق الذكر والتتبع .

ج . المتعربون والانسانويون والمدرسيون :

سادت في اوربا في القرون الوسطى وعصر النهضة بعض المفاهيم وهي Humanist , Arabist , Schoeastic . ولقد توصلنا الى ما يأتي :

١ . Arabist . وتعني المتعرب والمتعرب هو الملتزم بالثقافة العربية سواء كان عربياً ام اورياً . والتعرب هو الالتزام بهذه الثقافة وقبولها . والنسبة تعربى . تعنى ما يختص بهذه الثقافة . مفرقة عن عربي . Arabic . المنسوبة الى العرب سواء كانوا قوماً ام لغة .

٢ . Humanist انسانوي نسبة الى الانسانية Humanism وقد لجأنا الى هذه الكلمة لتفريقها عن الانسانية Humanity والانسانية هي دراسة الانسان بذاته والتوصل الى المعرفة عن ذلك الطريق . كما في علم التشريح . فالى عهد جوندنيوس سنة ١٣١٦ وفيوريوس سنة ١٥٤٣ كان التشريح يدرس حسب الكتب الموضوعية فيه . واطلقت هذه التسمية على الحركة الفكرية من سنة ١٤٥٠ الى سنة ١٥٥٠ .

٣ . Scholasticism المدرسية . ويقصد بها نوع من فلسفة ولاهوت رجال المدارس في القرون الوسطى الذين كانت تعتمد معرفتهم على الكتب والنظريات المجردة لا الحياة . وانحصرت فعاليتها في حدود القرن الحادي عشر والقرن الرابع عشر .

وكان المثقفون انذاك اما متعرب Arabist او انسانوي Humanist . وفي بعض الاحيان يكون الانسانويون في صف المتعربين . وكانت الحركة الفكرية قائمة بينهما . وكان الانسانويون رابحين . ولكن النتيجة لم تكن واضحة . ولهذا نجد فيوريوس يضمن كتبه في التشريح كلمات عربية كثيرة . وكان هناك من يقبلون آراء جالينوس Galensts دون مناقشة . وكانوا يتفقون مع المتعربين في امور ويختلفون معهم في امور اخرى . وكان المقصود باللغات الكلاسيكية انذاك العربية واليونانية . وكان الوصول الى اللغة العربية في ذلك الحين اسهل بكثير من الوصول الى اللغة اليونانية .

ط . سبل انتقال المعرفة :

ان انتقال المعرفة يمكن ان يحدث عن السبل التالية :

١ . الاتصال المباشرين ممارسي الطب العرب والاوربيين والنقل الشفوي خاصة في مناطق الاتصال الواسع .

٢ . عن طريق المولاة . بن والمستعربين في اسبانيا وصقليا الذين اخذوا الثقافة العربية لقرون عديدة .

٣ . عن طريق العرب الباقين في تلك البلاد بعد زوال الحكم العربي . وعن طريق المجاورين للحكم العربي الذين تأثروا بتلك الثقافة .

٤ . الدراسة . حيث كان بعض الاوربيين يرسون الطب على اساتذة عرب .

٥ . الاطلاع المباشر على الكتب انظر العربية . اللغة العربية . وذلك يحتاج الى معرفة هذه اللغة . ولقد ثبت انها كانت معروفة لدى عدد من الاطباء وغيرهم .

٦ . الترجمة المنظمة التي حدثت في اسبانيا وصقليا وإيطاليا . والترجمة الجزئية لبعض المؤلفات لأغراض معينة .

٧ . هجرة بعض الاطباء العرب كما حدث في جنوب فرنسا .

٨ . ان انتقال المعرفة بطرق مباشرة عدا الترجمة امر معروف . وهو ما حدث في القرن العشرين عندما حصلت البلاد العربية على المعرفة الطبية الحديثة بواسطة لغة اجنبية تعلمها الدارسون . ولم تجر محاولة منظمة للترجمة . وانما صدرت مؤلفات باللغة العربية .

ي . التأثير في الطب البيزناني

١ . بعد بيان تأثير الطب العربي الواضح على الطب الاوربي في القرون الوسطى وعصر النهضة . لا بد من العودة الى الماضي الآف السنين لمعرفة تأثير العلوم والطب في العراق وغيره من بلاد العرب على الحضارات الاخرى . فالأكديون والآشوريون جاءوا الى هذه البلاد قبل اكثر من اربعة الآف سنة من جزيرة العرب ومعهم لغتهم . وان كثيراً من الكلمات الطبية التي استعملت في ذلك الوقت مشابه للكلمات العربية التي تستعمل الآن . خاصة أسماء الاعضاء واسماء النباتات الطبية .

٢ . وهناك ادلة كثيرة على انتقال العلوم من بلاد اترافدين مثل ترجمة الجداول الفلكية التي اعدت لمكتبة سرجون ملك اكاد الى اللغة اليونانية . ترجمها بيروسوس Berossos . كما اقتبس اليونان من مؤلفات بعض الكلدانيين في العلوم مثل سايدن Ciden . و نابوريانوس Naburianus وسودنيوس Saddenus . ووجدت في مكتبة آشور بانيال المادة العلمية التي عرفت باسم فيثاغورس Pythagoras . وكان فيثاغورس (ت ٦٠٠ ق م) . واقليدس (٣٠٦-٢٨٣ ق م) . اصلهما من مدينة صور . كما ان ابقراط (٤٦٠-٣٧٧ ق م) كانت له عدلات بالشام . وجالينوس (١٣١-٢٠١ م) اقام في مصر فترة من الزمن .

٣ . ان دراسة ماتيسر عن الطب الآشوري والبابلي ونشر باللغة الانكليزية . تدلنا بوضوح على وجود طب متطور في التشريح والتشخيص والعلاج . كما تضمنت شريعة حمورابي قبل اكثر من ٣٧٠٠ سنة احكاماً لتنظيم ممارسة الطب . ان نقل نصوص الألواح من الكتابة المسمارية باللفظ الاكدي الى الكتابة الابجدية باللفظ العربي مباشرة (دون المرور بلغة اجنبية) سيليقي ضوء كبيراً على فهم النصوص الطبية والعلمية القديمة لان كثيراً من كلماتها يشابه اللغة العربية المعاصرة . وبعد سقوط الدولتين العظيمتين في بابل ونيوى قبل اكثر من ٢٥٠٠ سنة بقي الشعب ولغته في البلاد . واثرت حضارته في الشعوب والحكومات الاخرى .

٤ . ولقد اشار المؤلفون العرب في تاريخ الطب القديم الى صلته ببابل . فذكرنا هرمس من بابل على انه اول من علم الطب والفلسفة وعلم العدد . وان اسقليبيوس Asklepios كان ببابل . وهو اصل الطب لدى اليونانيين .

ك. الدعوة الى دراسة المصادر اليونانية :

ان دراسة مصادر المعرفة اليونانية ومراجعتها سيد لنا على التأثير الذي اتاها من بلادنا . ومثلما وجدت الطرق التي تأثر بها الاوريون في القرون الوسطى وعهد النهضة . في مؤلفاتهم باللغة اللاتينية وما نقل عنها باللغات الاوربية المعاصرة . فان طرق تأثر اليونانيين في العهود الغابرة نجدتها في مؤلفاتهم في تلك الفترة . وفي ما نقل عنها بعد ذلك في المؤلفات باللغة اللاتينية ثم باللغات الاوربية الحديثة . ان خطة شاملة لدراسة الطب والعلوم في الحضارات القديمة سيلقي ضوءاً قوياً على تأثير تلك الحضارات في الحضارات العالمية . وان « معايشة تلك الفترة » تستوجب الامور الآتية :

- ١ . نقل المؤلفات الآشورية والبابلية من لغتها الى اللغة العربية مباشرة لتقارب كثير من الكلمات
- ٢ . دراسة مماثلة للحضارات القديمة الاخرى في البلاد العربية .
- ٣ . الرجوع الى المؤلفات اليونانية او ترجماتها الدقيقة ومحاولة معرفة مصادرها . مع ملاحظة تحويل الاسماء .
- ٤ . الاطلاع على ما كتب عن تلك الفترة في الاوقات القريبة منها وكذلك في عهد الترجمة الى اللغة العربية ثم في عهد الترجمة الى اللغة اللاتينية بعد ذلك بمئات السنين

والواقع ان الطب ندى اليونان انبثاً نفوا . فان كثيراً من مؤلفيهم مدين لمز اسبقهم . وكانت بلادهم على اتصال بحضارات العراق والشام ومصر القديمة . كما كانت قبلهم حضارة اخرى في كريت وجزائر بحر ايجة على اتصال بهذه البلاد . و اشار المؤلفون العرب الى حصول اليونان على المعرفة من غيرهم . فذكروا الاسكندر (عبد الى كتب النجوم والطب والفلسفة فنقلها الى اللسان اليوناني) وانفذها الى بلاده .

ثم ان الاسماء اليونانية لاطباء مدرسة الاسكندرية ليست دليلاً على انهم من اليونانيين . اذ ان الاسماء كانت تحوّر بحيث يصعب معرفة اصلها . فقد السف Aretaeus وهو من اطباء الاسكندرية في القرن الثاني بعد الميلاد كتباً مهمة في الطب . وهذا الاسم هو التحوير اليوناني الاعتيادي لاسم (الحارث) . وكان بين اطباء مدرسة الاسكندرية من عرف باصله العربي مثل عبد الملك بن ابيجر الكاهن .

وكان من الرها طبيبان في اوائل القرن الثاني الميلادي تركا مؤلفات طبية مهمة هما Soranus of Ephesus (٩٨-١٣٨ م) و RuBus of Ephesus (حوالي ١١٥ م) . وكان ديسقوريدس (حوالي سنة ٦٠ م) Dioscorides من عين زربة في آسيا الصغرى . وكتابة في النباتات مشهور ومعروف . وكان اطنسوس الأمدي Aetius of Amida في القرن السادس الميلادي مؤلفاً موسوعياً في الطب . ان هؤلاء الاطباء من مدن تقع في مجال التأثير الثقافي العربي القديم . وربما كانوا واسطة لنقل الطب القديم من حضارة الى اخرى .

١٩٨١/١١/١٧

